وِحْدَةُ السُّورَةِ الْقُرْآنِيَّةِ عِنْدَ بَعْضِ عُلَمَاءِ الْإِعْجَازِ الْمُعَاصِرِينَ

إِعْدادُ:

د. يحيى بن محمّد عطيف

الأستاذ المشارك بقسم اللّغة العربيّة وآدابها كلّيّة العلوم الإنسانيّة جامعة الملك خالد

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين ،نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فموضوع هذا البحث" وحدة السورة القرآنية عند بعض علماء الإعجاز المعاصرين "وهو حلقة ثانية في سياق دراستي لوحدة السورة القرآنية، بدأتها بدراسة وحدة السورة عند علماء الإعجاز القدماء، تناولت فيها جهود المتقدمين من علماء الإعجاز في دراسة وحدة السورة القرآنية، وأشرت فيها إلى أني أعني الإعجاز البلاغي وعلماءه الذين لهم آراء ونظريات في قضية إعجاز القرآن، وألفوا فيها مؤلفات، تناولت وحدة السورة فيما تناولت من موضوعات، وهذا ما أعنيه بالإعجاز وعلمائه في عنوان هذه الحلقة الثانية؛ ونظرا لكثرة الذين تحدثوا عن وحدة السورة من الباحثين المعاصرين ، فقد اقتصر البحث على علماء الإعجاز البلاغي النظمي الذين لهم آراء ونظريات في إعجاز القرآن كالرافعي وسيد قطب والفراهي، أو لهم دراسات في بلاغة القرآن وإعجازه ونظمه تناولت وحدة السورة في سياق نظرة عامة شاملة لبلاغة سور القرآن وخصائصها دون الاقتصار على سورة مفردة كسائر من تناولهم البحث.

ومن الدوافع إلى بحث هذا الموضوع غلبة المعالجات الجزئية لبلاغة النصوص ومنها النص القرآني في الدراسات البلاغية القديمة والحديثة، وإغفالها لخاصية الوحدة في بلاغة النصوص ، واهتمام الدراسات الأدبية والنقدية الحديثة بقضية الوحدة في العمل الأدبي وانصرافها من الجزئيات إلى

الكليات ، واتساع فهم المحدثين للبلاغة والجمال الفني لتتجاوز الشواهد والأمثلة المجتزأة فتشمل النص بوصفه كلا متماسكا في وحدته وانسجام أجزائه وتآلفها وتكوينها وحدة عضوية داخلية تنتظم في سياق معين.

وإيمانا مني بأن علم البلاغة ينبغي أن يهتم بالوحدة لأنها من أبرز المقومات في بلاغة النص وجمالياته ، وأنه على الرغم من إغفال الدراسات البلاغية لهذه الخاصية البيانية فإن بعض علماء الإعجاز قديما وحديثا لم يغفلوا النظرة الكلية العامة لبلاغة النص القرآني بخاصة من خلال حديثهم عن وحدة السورة القرآنية.

وكما أوضحت في الحلقة الأولى جهود القدماء من علماء الإعجاز في دراسة الوحدة وددت في هذه الحلقة الثانية أن أبين جهود المحدثين المعاصرين من علماء الإعجاز في دراسة وحدة السورة القرآنية، وأقف على طبيعة تلك الجهود وقيمتها ، ومدى ما شهدته دراستهم لها من تطور.

وعلى أهمية الموضوع لم يحظ بدراسة مخصصة تبسط القول في دراسة وحدة السورة عند علماء الإعجاز المحدثين ، وتوضح جهودهم في دراسة هذه الخاصية البلاغية في السورة القرآنية تنظيرا وتطبيقا.

وتجدر الإشارة إلى أن الأستاذ "أحمد أبو زيد" أشار باقتضاب في بضع صفحات من كتابه " التناسب البياني في القرآن " إلى آراء بعض علماء الإعجاز في وحدة السورة ، مغفلا الحديث عن أهم جهودهم في هذه القضية على مستوى التنظير والتطبيق، وهي الجوانب التي اتجه اهتمامي إليها في هذا البحث، وعلى أية حال فقد قدمت إليّ إشارته معونة مشكورة أثبتها في مواطنها.

ويستهدف بحثي هذا لفت أنظار المهتمين ببلاغة القرآن إلى أهمية النظرة الكلية العامة للسورة والوقوف على وحدتها التي تساعد على إدراك صورتها العامة وموضوعاتها والروح الذي يسري بين آياتها، ويسيطر على مبادئها وتوجيهاتها، فيسهل حفظها وتدبرها وتذوقها وإدراك مقاصدها وأهدافها. ولا شك في أن هذه النظرة أكثر فائدة وأجدى نفعا من النظرة التي لا تتجاوز الجزئيات ولا تربطها بسياقها وصورتها العامة.

وقد اعتمدت في إعداده على مؤلفات علماء الإعجاز المعاصرين التي تحدثت عن وحدة السورة كإعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي والتصوير الفني في القرآن وفي ظلال القرآن لسيد قطب، والنبأ العظيم لمحمد عبدالله دراز، والنظم الفني في القرآن لعبد المتعال الصعيدي، ومن بلاغة القرآن لأحمد بدوي، ونظام القرآن ودلائل النظام للفراهي، واستعنت بالمراجع المتصلة به القرآنية والبلاغية والنقدية، وجعلته في مقدمة وتمهيد وستة مباحث وخاتمة . تحدثت في التمهيد عن عناية المحدثين المعاصرين من علماء الإعجاز بوحدة السورة وتطور مفهومها، وتناولت في المباحث وحدة السورة عند كل من الرافعي وسيد قطب، ومحمد عبدالله دراز، وعبد المتعال الصعيدي، وأحمد بدوي، وعبدالحميد الفراهي، وحاولت أن أسلك في دراسته مسلكا وصفيا تحليليا . أعرض الآراء وأحللها، مبينا طبيعتها وقيمتها ، وختمت البحث بخاتمة سجلت فيها أهم النتائج التي انتهيت إليها . هذا والله أسأل أن يجنبني الزلل، وأن يوفقني لخدمة كتابه العزيز والإسهام في خدمة بلاغته وإعجازه، والله الهادي إلى سواء السبيل.

التمهيد: عناية المعاصرين من علماء الإعجاز بوحدة السورة وتطور مفهومها:

على الرغم من غلبة النظرة الجزئية على بلاغتنا العربية القديمة ممثلة في صورتها الأخيرة التي انتهت إليها عند البلاغيين المتأخرين، وسيطرة المعالجات الجزئية في تراثنا البلاغي والنقدي لأسباب متعددة [١].

فإن بعض علماء الإعجاز القدماء كالباقلاني(ت٤٠٣هـ) والفخر الرازي (ت٦٠٦هـ) لم يغفلوا الحديث عن النظرة الكلية العامة لبلاغة النص القرآني بخاصة من خلال حديثهم عن وحدة السورة القرآنية . فقد عنوا بوحدة السورة واتحاد أجزائها والتناسب بين آياتها ومظاهرها وبلاغتها في سياق حديثهم عن إعجاز القرآن ودقائق نظمه وبدائع تأليفه.

فعدوها وجها من وجوه الإعجاز النظمي ، وخاصية من جملة الخصائص التي انفرد بها النظم القرآني[٢]ومظهرا من مظاهر التناسب البياني في القرآن الكريم وسر البلاغة وجوهرها[٣].

---

(١) انظر البلاغة تطور وتاريخ، د. شوقي ضيف، ٣٧٦، دار المعارف، مصر، ط/٥(د .ت).

(٢) انظر: إعجاز القرآن: البلاقلاني، تح: السيد أحمد صقر، ١٠ ، ١١، ٣٦، ٣٧، دار المعارف، مصر، ط/٤ ، ١٩٧٧م، والتفسير الكبير: فخر الدين الرازي، ١١٢/٧، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/١، ١٤٢١هـ .

(٣) انظر : نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : البقاعي ، تح : عبدالرزاق المهدي، ٥/١ ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/١، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.

واختاروا سورا كاملة أوضحوا من خلال تحليلها مظاهر وحدتها مؤكدين أن هذه الخاصية البلاغية تشمل سور القرآن جميعها وليست خاصة بسورة دون أخرى(١).

وأدخلها المتأخرون في علم المناسبة وعدوها قسما منه وأوضحوا بعض مظاهرها كمناسبة فاتحة السورة لخاتمتها ولغرضها العام(٢).

وإذا كان ذلك كذلك فإن العناية بوحدة السورة نمت في العصر الحديث عند بعض علماء الإعجاز بعوامل متعددة ، منها اهتمام بعض أساتذة التفسير المحدثين بوحدة السورة القرآنية.

ويعد الشيخ محمد عبده(ت١٣٢٣هـ ـ١٩٠٥م) أول من استعمل مصطلح الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية، وعدها من الأصول التي يقوم عليها منهجه في التفسير، وأوجب أن تكون فكرة السورة أساسا في فهم آياتها، وتأثر به تلميذه السيد رشيد رضا وبعض أساتذة التفسير في العصر الحديث(٣)، ومنهم بعض علماء الإعجاز كما سيأتي.

---

(١) انظر إعجاز القرآن: ٩ وما بعدها، ١٨٩ وما بعدها، ١٩٣، والتفسير الكبير : ١١٦/٢٧.

(٢) انظر : البرهان في علوم القرآن ، الزركشي ، تح : محمد أبو الفضل إبراهيم ، ٣٦/١ وما بعدها، دار المعرفة، بيروت، ط/٢، ١٣٩١هـ ـ ١٩٧٢م، والإتقان في علوم القرآن: السيوطي، ١٣٨/٢ وما بعدها ، مطبعة مصطفى الحلبي، القاهرة، ط/٤، ١٣٨٩هـ ـ ١٩٧٨م.

(٣) انظر : أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن: د. عبدالله شحاته ، ٦/١ وما بعدها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط/٤، ١٩٩٨م ، وانظر : اتجاهات التجديد في تفسير القرآن الكريم في مصر، د. محمد إبراهيم شريف ، ٣٦٧ ، ط/١، دار التراث، القاهرة، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

ومن تلك الدوافع أيضا اهتمام الدراسات الأدبية والنقدية الحديثة بوحدة العمل الأدبي(١)، واتساع دائرة فهم المحدثين للبلاغة أو الجمال الفني لتتجاوز الجزئيات ممثلة في الشواهد والأمثلة المجتزأة فتشمل النص بوصفه كلا متماسكا في وحدته ونظامه وانسجام أجزائه وتآلفها وتكوينها وحدة عضوية داخلية تنتظم في سياق معين، وتترابط بخيوط واضحة الاتجاه تسير سيرا طبيعيا في تطورها من البداية إلى النهاية سواء في القصيدة أو القصة أو أي فن من فنون الأدب الحديث(٢).

بدافع من ذلك كله ازدادت العناية بوحدة السورة نموا عند بعض الباحثين المحدثين من الأدباء والنقاد وعلماء الإعجاز على مستوى التنظير والتطبيق كما سيأتي ، ومن ذلك ما يتصل بمفهوم الوحدة في السورة فإذا كان مفهومها عند القدماء لا يخرج عن معنيين:

أحدها: قوة الترابط والتناسب المعنوي بين آيات السورة وتناسق أجزائها(٣).

والآخر: أن يكون لكل سورة موضوع واحد وغرض عام تدور حوله آياتها وتتجه إلى بيانه وإظهاره(٤)، فإنه يشهد تطورا عند بعض علماء الإعجاز

(١) انظر: النقد الأدبي الحديث: د. محمد غنيمي هلال، ٣٦٤، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٣م، والنقد الأدبي بين القدامى والمحدثين : د. العربي حسن درويش، ٣٩٨، مكتبة النهضة، القاهرة (د. ت).

(٢) انظر: البلاغة والتحليل الأدبي، د. أحمد أبو حاقة، ١٥، دار العلم للملايين ، بيروت، ط/١، ١٩٨٨م.

(٣) انظر: إعجاز القرآن : ٩ - ١١، ٣٦ ، ٣٧.

(٤) انظر: التفسير الكبير : ١١٦/٢٧ .

المحدثين فيؤكد بعضهم عمق معنى الوحدة في السورة والتحام أجزائها التحاما عضويا[١]، وأنها تتجاوز الصلات الجزئية أو مجرد الترابط والتناسب في المعاني والأفكار إلى أنها ذات نظام كلي ومنهج محدد يقوم على مقدمة وموضوع وخاتمة[٢]، وهذه العناصر تتآزر لتحقق مقاصد السورة وأهدافها على ما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

المبحث الأول: وحدة السورة عند الرافعي (ت١٣٥٦هـ):

تحدث الأستاذ الرافعي في سياق حديثه عن إعجاز القرآن حديثا عاما يتصل بوحدة السورة القرآنية . فأشار إلى هذه الخاصية البلاغية في أسلوب القرآن فعدها من أهم وجوه الإعجاز، متفقا مع بعض علماء الإعجاز القدماء كالباقلاني(ت ٤٠٣هـ) والفخر الرازي (ت٦٠٦هـ)، فرأى أن «من أعجب ما اتفق في القرآن من وجوه إعجازه أن معانيه تجري في مناسبة الوضع وإحكام النظم مجرى ألفاظه...ولا يعدم المفكر وجها صحيحا من القول ربط كل كلمة بأختها ، وكل آية بضريبتها ، وكل سورة بما إليها» [٣]، ويربط هذه الظاهرة القرآنية بعلم المناسبة[٤].

ويشير إلى بعض من عني بالمناسبات في القرآن كالرازي الذي أكثر منها في تفسيره، والبقاعي (ت٨٨٥هـ) والسيوطي(ت:٩١١هـ) ومحمد عبده الذي

(١) انظر: النبأ العظيم، د. محمد عبدالله دراز، ١٥١ ، مطبعة السعادة، مصر، ١٣٧٩هـ.١٩٦٠م.

(٢) انظر: مدخل إلى القرآن الكريم، د. محمد عبدالله دراز، ١١٩، دار المعرفة الجامعية، مصر(د . ت).

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية : الرافعي ، ٣٤٤ ، ط/٨ (د.ت) .

(٢) انظر : المرجع السابق : ٢٤٤ .

« كثيرا ما يعنى بتفسيره بحقائق غريبة من تناسب الآيات وتعلق نظم القرآن بعضه ببعض، وله في ذلك فكر ثاقب ونفاذ عجيب» ويقول إن هذا النوع «من الإعجاز في معاني القرآن وارتباطها أمر لا ريب فيه، وهو أبلغ في معناه الإلهي إذا انتبهت إلى أن السور لم تنزل على هذا الترتيب، فكان الأحرى أن لا تلتئم وأن لا يناسب بعضها بعضا ، وأن تذهب آياتها في الخلاف كل مذهب، ولكنه روح من أمر الله : تفرق معجزا ، فلما اجتمع اجتمع له إعجاز آخر ليتذكر به أولو الألباب»[1].

ويتكلم الرافعي عن الترابط القوي بين عناصر النظم القرآني ، ويسمي هذا الترابط "بروح التركيب" ويشير إلى أن هذه الروح بها انفرد نظم القرآن ، وامتاز بهذه الوحدة عن غيره على الرغم من تعدد الوجوه التي يتصرف فيها من أغراض الكلام كالقصص والمواعظ والحكم والتعليم وضرب الأمثال... إلى غيرها مما يدور عليه[2].

ويرى الأستاذ الرافعي أنه «لولا تلك الروح لخرج أجزاء متفاوتة ، على مقدار ما بين هذه المعاني ومواقعها في النفوس ، وعلى مقدار ما بين الألفاظ والأساليب التي تؤديها حقيقة ومجازا ، كما تعرفه من كلام البلغاء عند تباين الوجوه التي يتصرف فيها ...وإنما وقع للبلغاء هذا النقص من جهة التركيب، إذ ليس في كلامهم روح كروح النظم في القرآن ، ولا هذه الروح مما تطوعه قوى الخلق»[3].

---

(٣) المرجع السابق : ٢٤٤ .

(١) انظر: المرجع السابق: ٢٤٥. وانظر : التناسب البياني في القرآن: ٥٧ .

(٢) المرجع السابق : ٢٤٥ .

المبحث الثاني: وحدة السورة عند سيد قطب (١٩٦٦م):

تحدث الأستاذ سيد قطب عن وحدة السورة في كتابيه: "التصوير الفني في القرآن وفي ظلال القرآن".

أما الأول الذي تضمن نظرية في الإعجاز هي نظرية التصوير الفني فقد فتح فيه فصلا عن " منبع السحر في القرآن " ذهب فيه إلى أن منبع السحر فيه يتجسد في وحدة نسق السورة[١]، وتحدث عن تأثير القرآن العجيب في النفوس، وأورد أمثلة لمن أسلم من كفار قريش تحت تأثير سماع آيات القرآن، كما أورد شهادة بعضهم واعترافه ممن ناصبوا الدعوة العداء كالوليد بن المغيرة الذي روي عنه قوله بعد أن سمع بعض آي القرآن : «إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لغدق، وإن فرعه لجناة»[٢].

---

(٣) انظر: التصوير الفني في القرآن: سيد قطب، ١٥، ١٧، دار الشروق ، بيروت، ط/٣ (د.ت)، وصف المؤلف القرآن بالسحر في هذا الفصل والفصل السابق له الذي جعل عنوانه "سحر القرآن" ، ويعني به" جاذبية القرآن وروعته ولطف مدخله ومأخذه،= =وقوة تأثيره في النفوس ..." (انظر: نظرية التصوير الفني عند سيد قطب ، صلاح الخالدي، ٨٧، مطبعة حطين ، دار الفرقان، عمان، ط/١ ، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م) ، ورأى بعض الباحثين أنه وصف غير لائق ، واعترض أحمد الشرباصي على هذا الوصف " وتمنى لو أن المؤلف استخدم بدلا منه "جاذبية القرآن أو روعة القرآن ؛ لأن السحر في الأغلب يدل على معنى الخداع والتغرير، وهو الذي كان يقصده الكفار حين وصفوا به القرآن الكريم " (انظر: الرسالة – السنة التاسعة عشرة – م١(٤) ٩٢٧، ابريل ١٩٥١، ص :٤٢٩). والمرجع السابق : ٨٦.

(١) السيرة النبوية : ابن هشام ، تح : مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبدالحفيظ شلبي، =

والذي قال عنه ربنا في القرآن : ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ (المدثر : ١٨ - ٢٣).

ويرى الأستاذ قطب أن المصدر الأول لهذا التأثير «يجب أن نبحث عنه في القرآن قبل التشريع المحكم، وقبل النبوءة الغيبية، وقبل العلوم الكونية وقبل أن يصبح القرآن وحدة مكتملة تشمل هذا كله» [(١)].

ثم أشار إلى أن هذه الروعة كامنة في صميم النسق القرآني ذاته ، لا في الموضوع الذي يتحدث عنه وحده، وإن لم نغفل ما في روحانية العقيدة الإسلامية وبساطتها من جاذبية»[(٢)].

= ٢٧٠/١ ، دار الكنوز الأدبية ، (د.ت) ، ورد الخبر في "تفسير القرآن " للصنعاني ، تح: د. مصطفى مسلم ، ٣٢٨/٢ ، مكتبة الرشد ، الرياض ، ط/١ ، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م ، ولفظه " ... والله إن لقوله الذي يقول لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله وإنه ليحطم ما تحته وإنه ليعلو وما يعلى " ، وفي نسخ أخرى " مغدق ، وعند البيهقي " ... والله إن لقوله الذي يقول حلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله وإنه ليعلو وما يعلا ، وإنه ليحطم ما تحته " (دلائل النبوة : البيهقي ، تح : د عبدالمعطي قلعجي ، ١٩٨/٢ ، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط/١ ، ١٤٠٥هـ) . وفي مستدرك الحاكم " ... ووالله إن لقوله الذي يقول حلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله وإنه ليعلو وما يعلى وإنه ليحطم ما تحته " (انظر : المستدرك على الصحيحين ، الحاكم النيسابوري ، ٥٠٦/٢، ٥٠٧ ، دار المعرفة ، بيروت.

(١) التصوير الفني : ١٦ .

(٢) المرجع السابق : ١٧ .

وأشار إلى أن هذه الجاذبية ينبغي التماسها في تلك السور التي بدأ بها نزول القرآن ، واختار سورتي العلق والمزمل وحللهما ، مبينا وحدة النسق فيهما، ونختار سورة العلق لنقف على منهج المؤلف في بيان وحدتها وتناسق معانيها يقول إنها «تضم خمس عشرة فاصلة قصيرة ، ربما يلوح في أول الأمر أنها تشبه سجع الكهان أو حكمة السجاع...ولكن العهد في هذه وتلك أنها جمل متناثرة، لا رابط بينها ولا اتساق . فهل هذا هو الشأن في سورة العلق ؟

وأجاب بالنفي «فهذا نسق متساوق ، يربط فواصله تناسق داخلي دقيق»(١).

ثم شرع في تحليل السورة وبيان ما فيها من تناسق كامل بين أجزائها وتسلسل في ترتيب الحقائق التي تضمنتها يجعل منها وحدة متسقة متماسكة . ويبدأ بالمقطع الأول من السورة :﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥ ﴾.

يقول: «هذه هي السورة الأولى في القرآن ، فناسب أن يستفتحها بالإقراء، وباسم الله : الإقراء للقرآن، واسم الله ، لأنه هو الذي يدعو باسمه إلى الدين.

والله "رب" فالقراءة للتربية والتعليم: "اقرأ باسم ربك".

وإنها لبدء للدعوة، فليختر من صفات " الرب" صفته التي بها معنى البدء بالحياة: " الذي خلق"... وليبدأ من الخلق بمرحلة أولية صغيرة: " خلق

(٣) المرجع السابق : ١٧ .

الإنسان من علق". منشأ صغير حقير ، ولكن الرب الخالق كريم ، كريم جدا ! فقد رفع هذا العلق إلى إنسان كامل ، يعلّم فيتعلم: " اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم".

وإنها لنقلة بعيدة بين ذلك المنشأ وهذا المصير.

وهي تُصوَّر هكذا مفاجأة بلا تدرج ، وتغفل المراحل التي توالت بين المنشأ والمصير . لتلمس الوجدان الإنساني لمسة قوية في مجال الدعوة الدينية، وفي مجال التأملات الوحدانية»[1].

بعد هذا المقطع الذي يقرر حقيقة أن الله هو الذي خلق وعلم وأكرم يأتي المقطع الثاني من السورة ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴾ ليبرز صورة الإنسان الطاغي يقول: «ولقد كان المتوقع أن يعرف الإنسان هذا الفضل العظيم ، وأن يشعر بتلك النقلة البعيدة . ولكن " كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى " لقد برزت إذن صورة الإنسان الطاغي الذي نسي منشأه وأبطره الغنى ، فالتعقيب التهديدي السريع على بروز هذه الصورة هي: " إن إلى ربك الرجعى"»[2] .

ويأتي المقطع الثالث من السورة ليعرض صورة مستنكرة من صور الطغيان ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ ﴾ .

---

(١) المرجع السابق: ١٧، ١٨.

(٢) المرجع السابق: ١٨.

يقول: «إن هذا الإنسان الذي يطغى، ليتجاوز بطغيانه نفسه إلى سواه: "أرأيت الذي ينهى عبدا إذا صلى " أرأيت، إنها لكبيرة ! وإنها لتبدو أكبر إذا كان هذا العبد على الهدى آمرا بالتقوى: "أرأيت إن كان على الهدى، أو أمر بالتقوى" فما بال هذا المخلوق الإنساني غافلا عن كل شيء غفلته عن نشأته ونقلته " أرأيت إن كذب وتولى. ألم يعلم بأن الله يرى" فالتهديد إذن يأتي في إبانة: " كلا لئن لم ينته لنسفعن بالناصية .

هكذا "لنسفعن" بذلك اللفظ الشديد المصور بجرسه لمعناه، وإنه لأوقع من مرادفه...وإنها للحظة صفع وصرع، فقد يخطر له أن يدعو من يعتز بهم من أهله وصحبه: " فليدع ناديه "ومن فيه، أما نحن فإننا "ستدع الزبانية..."[١] وفي هذا المصير المتخيل الرعيب تأتي الخاتمة بتوجيه المؤمن إلى الثبات على الإيمان وعصيان الطغاة " كلا لا تطعه واسجد واقترب"[٢].

وينتهي الأستاذ قطب إلى تأكيد وحدة السورة وتناسق معانيها، فقال:" وهذه الفواصل التي تبدو في الظاهر متناثرة ، هي في الداخل متناسقة"[٣].

ومن مظاهر وحدة السورة التي أشار إليها في هذا الكتاب التناسب بين موضوع السورة والحلقات القصصية فيها.

---

(١) انظر: المرجع السابق : ١٨ – ١٩.

(٢) انظر: في ظلال القرآن ، سيد قطب، ٣٩٤٣/٦، دار الشروق، بيروت، ط/١٥ ، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.

(٣) التصوير الفني: ١٩.

يقول في سياق حديثه عن خضوع القصة القرآنية للغرض الديني: «كان من آثار خضوع القصة في القرآن للغرض الديني أن تعرض بالقدر الذي يكفي لأداء هذا الغرض، ومن الحلقة التي تتفق معه...»[(١)]، وساق الشواهد لإيضاح هذه الصورة من صور وحدة السورة، وبسط القول في بيانها في تفسير الظلال الذي يُعنى فيه بالوحدة الموضوعية للسورة وترابط أجزائها، فله كتابات واضحة حول الوحدة الموضوعية أو المحورية للسورة، يتضح ذلك من خلال قوله في مطلع تفسيره لسورة البقرة: «إن لكل سورة من سور (القرآن) شخصية مميزة. شخصية لها روح يعيش معها القلب...ولها موضوع رئيس أو عدة موضوعات رئيسية مشدودة إلى محور خاص ولها جو خاص يظلل موضوعاتها كلها، ويجعل سياقها يتناول هذه الموضوعات من جوانب معينة ، تحقق التناسق بينها وفق هذا الجو...وهذا طابع عام في سور القرآن جميعـًا، ولا يشذ عن هذه القاعدة طوال السور كهذه السورة (البقرة» [(٢)]، ويهتم بهذا الموضوع في مطلع تفسير كل سورة على امتداد الظلال[(٣)]، فيورد «فكرة عامة عن السورة بين يدي تفسيرها، يستطيع القارئ من خلالها أن يرى وحدة عضوية وفكرية للسورة»[(٤)]. وذلك يمثل المرحلة الأولى التي تقوم عليها طريقته في تفسير القرآن وهي «قراءته للسورة القرآنية كاملة عدة مرات حتى يهتدي إلى موضوعها الرئيسي،

(١) المرجع السابق: ١٣٢، وانظر : التناسب البياني في القرآن : ٦٧ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق : ١/٢٧ ، ٢٨.

(٣) انظر: المرجع السابق: ١/٣٣ وما بعدها.

(٤) أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن: ١/٦.

ومحورها العام الذي تدور حوله سائر موضوعاتها الفرعية الأخرى»[١].

وما ذكره في مطالع تفسير السور يعد نموذجا لاهتمامه بوحدة السورة وعنايته بها، ومنها سورة الحجر التي يقول عنها: «محور هذه السورة الأول هو إبراز طبيعة المكذبين بهذا الدين ودوافعهم الأصيلة للتكذيب، وتصوير المصير المخوف الذي ينتظر الكافرين المكذبين...وحول هذا المحور يدور السياق في عدة جولات متنوعة الموضوع والمجال، ترجع كلها إلى ذلك المحور الأصيل . سواء في ذلك القصة، ومشاهد الكون، ومشاهد القيامة، والتوجيهات والتعقيبات التي تسبق القصص وتتخلله وتعقب عليه»[٢].

ويقسم سياق السورة بحسب معانيها إلى خمسة أقسام أو مقاطع[٣]:

ـ المقطع الأول من آية(١ ـ ١٥) يتضمن بيان سنة الله التي لا تتخلف في الرسالة والإيمان بها والتكذيب ، مبتدئاً بذلك الإنذار الضمني الملفع بالتهويل : ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ﴾

ومنتهيا بأن المكذبين إنما يكذبون عن عناد لا عن نقص في دلائل الإيمان، وأنهم جميعا من طراز واحد : ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾.

ـ المقطع الثاني من آية (١٦ ـ ٢٥) يعرض بعض آيات الله في الكون،

(١) علوم القرآن: د. عدنان زرزور، ٤٣٣، المكتب الإسلامي، بيروت، ط/٢، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م .

(٢) في ظلال القرآن: ٢١٢٣/٤.

(٣) انظر: المرجع السابق، ٢١٢٣ ، ٢١٢٤.

في السماء والأرض وما بينهما وقد قدرت بحكمة . وأنزلت بقدر ، وإلى الله مرجع كل شيء وكل أحد في الوقت المقدر المعلوم ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ...وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ .

ـ المقطع الثالث من آية (٢٦ ـ ٤٨) يعرض قصة البشرية وأصل الهوى والغواية في تركيبها وأسبابها الأصلية ، ومصير الغاوين في النهاية والمهتدين ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ... لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ .

ـ المقطع الرابع من آية (٤٩ ـ ٨٤) في مصارع الغابرين من قوم لوط وشعيب وصالح، مبتدئا بقوله تعالى : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾. ثم يتتابع القصص يجلو رحمة الله مع إبراهيم ولوط وعذابه لأقوام لوط وشعيب وصالح .. ملحوظا في هذا القصص أنه يعرض على قريش مصارع أقوام يمرون على أرضهم في طريقهم إلى الشام ويرون آثارهم : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾.

ـ المقطع الخامس من آية(٨٥ ـ ٩٩) يكشف عن الحق الكامن في خلق السموات والأرض المتلبس بالساعة وما بعدها من ثواب وعقاب ، المتصل بدعوة الرسول ﷺ فهو الحق الأكبر الشامل للكون كله ، وللبدء والمصير ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾.

وعلى هذا النهج يسير صاحب الظلال في سائر سور القرآن وبذلك يعد «أول مفسر في تاريخ القرآن الكريم أبرز الوحدة الموضوعية في السورة القرآنية المفردة، طالت أم قصرت، أبرزها بشكل علمي مكتوب أو طبقه أروع تطبيق وأعمقه في كتابه العظيم...والذين سبقوا سيدا من المفسرين منهم من لم يلاحظها ولم يسلم بوجودها، ومنهم من ذهب إلى القول بها ، ولكنه عجز عن ملاحظتها وتقديمها فيما كتبه للناس من تفسير لكتاب الله تعالى . ثم جاء سيد ليؤكد على هذه الوحدة المحورية في السورة الواحدة، وليضع أيدينا بعد ذلك برفق وسهولة ولين على وجه الانتقال من موضوع إلى موضوع ...»[١] .

المبحث الثالث: وحدة السورة عند دراز:

تحدث الأستاذ الدكتور محمد عبدالله دراز في كتابه " النبأ العظيم " عن خصائص البيان القرآني التي امتاز بها عن سائر الكلام سواء في الفقرة التي تتناول شأنا واحدا ، أو في السورة التي تتناول شؤونا شتى ، أو فيما بين سورة وسورة ، أو في القرآن جملة[٢].

وعد الوحدة في الكثرة أهم خصائص الأسلوب في السورة القرآنية. يقول: «... يضاف إليه أمر آخر هو زينة تلك الثروة المعنوية وجمالها. ذلك هو تناسق أوضاعها وائتلاف عناصرها، وأخذ بعضها بحُجَز بعض، حتى إنها لتنتظم منها وحدة محكمة لا انفصام لها»[٣].

(١) المرجع السابق : ٤٣١ .

(٢) انظر : النبأ العظيم ، ١٠١ .

(١) المرجع السابق : ١٣٧ .

ويمهد للحديث عنها بالحديث عن أسباب كانت تقضي بعدم تحقق الوحدة في السورة تتعلق بالطريقة التي نزل بها القرآن(١)، والطريقة التي ألفت بها نجومه(٢)، وعن خاصية الإيجاز وسرعة التنقل من معنى إلى معنى ومن أسلوب إلى أسلوب(٣).

وبين أن هذه المعاني الثلاثة كانت أسبابا قوية لجعل نظم القرآن مفككا، تتباين معانيه وتتنافر أجزاؤه، بيد أن هذه الأسباب لم تنل من استقامة النظم القرآني وتناسب معانيه شيئا(٤). ثم يبسط القول في مفهوم وحدة السورة واتحاد أجزائها والتحامها فيقول: «أعمد إلى سورة من تلك السور التي تتناول أكثر من معنى واحد ، وما أكثرها في القرآن ، فهي جمهرته ، وتنقل بفكرك معها مرحلة مرحلة، ثم ارجع البصر كرتين : كيف بدئت ؟ وكيف ختمت ؟ وكيف تقابلت أوضاعها وتعادلت؟ وكيف تلاقت أركانها وتعانقت ؟ وكيف ازدوجت مقدماتها بنتائجها ووطّأ أولاها لأخراها ؟ وأنا لك زعيم بأنك لن تجد البتة في نظام معانيها أو مبانيها ما تعرف به أكانت هذه السورة قد نزلت في نجم واحد أو في نجوم شتى»(٥).

---

(٢) انظر : المرجع السابق : ١٤٠ ، ١٤١ .

(٣) انظر : المرجع السابق : ١٤١.

(٤) المرجع السابق : ١٣٩ .

(٥) انظر : المرجع السابق ، ١٤٩ .

(٦) المرجع السابق : ١٥٠ .

ففي هذا النص يشير إلى اتحاد أجزاء السورة وتلاحمها ، وإن تضمنت معاني متعددة، ثم يؤكد هذا التلاحم في السورة الواحدة، ويمثل له بالحجرات والأفنية يجمعهما بنيان واحد قد وضع رسمه مرة واحدة.

يقول: «أجل إنك لتقرأ السورة الطويلة المنجمة يحسبها الجاهل أضغاثا من المعاني حُشيت حشوا، وأوزاعا من المباني جمعت عفوا، فإذا هي لو تدبرت بنية متماسكة قد بنيت من المقاصد الكلية على أسس وأصول، وأقيم على كل أصل منها شعب وفصول، وامتد من كل شعبة منها فروع تقصر أو تطول، فلا تزال تنتقل بين أجزائها كما تنتقل بين حجرات وأفنية في بنيان واحد قد وضع رسمه مرة واحدة، لا تحس بشيء من تناكر الأوضاع في التقسيم والتنسيق، ولا بشيء من الانفصال في الخروج من طريق إلى طريق، بل ترى بين الأجناس المختلفة تمام الألفة ، كما ترى بين آحاد الجنس الواحد نهاية التضامّ والالتحام...» [(١)].

ثم لا يرتضى هذا المثال الذي ذكره فيقول مؤكدا قوة معنى الوحدة في السورة والتحام أجزائها التحاما عضويا كما تلتحم أعضاء الإنسان: «ولماذا نقول إن هذه المعاني تنتسق في السورة كما تنتسق الحجرات في البنيان ؟ لا بل إنها لتلتحم فيها كما تلتحم الأعضاء في جسم الإنسان : فبين كل قطعة وجارتها رباط موضعيٌّ من أنفسهما، كما تلتقي العظمان عند المفصل ومن فوقهما تمتد شبكة من الوشائج تحيط بهما عن كثب، كما يشتبك العضوان بالشرايين والعروق والأعصاب، ومن وراء ذلك كله يسري في جملة السورة

(١) المرجع السابق : ١٥١ .

اتجاه معين، وتؤدي بمجموعها غرضا خاصا، كما يأخذ الجسم قواما واحدا، ويتعاون بجملته على أداء غرض واحد، مع اختلاف وظائفه العضوية»[1]، ثم يعد هذه الخاصية وحدها «آية بينة على أن هذا النظم القرآني ليس من وضع بشر، وإنما من صنع العليم الخبير»[2].

ولم يقف الأستاذ دراز في دراسة وحدة السورة عند ذلك المستوى فنجده يطبق كلامه تطبيقا عمليا، فيختار سورة البقرة التي هي أطول سور القرآن، والتي «جمعت بضعا وثمانين ومائتي آية ،وحوت ـ فيما وصل إلينا ـ من أسباب نزولها نيفا وثمانين نجما ، وكانت الفترات بين نجومها تسع سنين عددا»[3] .

ويوضح بين يدي دراسة الوحدة في هذه السورة الكريمة هدفه فيشير إلى أنه ليس من همه أن يكشف عن جملة الوشائج اللفظية والمعنوية التي تربط أجزاء سورة البقرة بعضها ببعض فتلك دراسة تفصيلية لها محلها من كتب التفسير ، وإنما هدفه أن يعرض السورة «عرضا واحدا يرسم به خط سيرها إلى غايتها، ويبرز وحدة نظامها المعنوي في جملتها، لكي ترى في ضوء هذا البيان كيف وقعت كل حلقة موقعها من تلك السلسلة العظمى»[4]. منطلقا مما قاله الشاطبي في الموافقات من أن «السورة مهما تعددت قضاياها فهي كلام واحد

(٢) المرجع السابق : ١٥١ .

(١) المرجع السابق : ١٥١ .

(٢) المرجع السابق : ١٥٣ .

(٣) المرجع السابق : ١٥٤ .

يتعلق آخره بأوله وأوله بآخره، ويترامى بجملته إلى غرض واحد... وأنه لا غنى لمتفهم نظم السورة عن استيفاء النظر في جميعها»[(١)]، ولذلك ينتقد اقتصار الناظرين في المناسبات بين الآيات على بحث الصلات الجزئية وإغفال «النظام الكلي الذي وضعت عليه السورة في جملتها» [(٢)]، ثم يشرع في دراسة وحدتها دراسة تحليلية توضح ترابط أجزائها وتلاحمها وتآلفها . فيقول: «اعلم أن السورة على طولها تتألف وحدتها من مقدمة وأربعة مقاصد وخاتمة على هذا الترتيب: المقدمة في عشرين آية(١ ـ ٢٠)، وهي في التعريف بشأن هذا القرآن، وبيان أن ما فيه من الهداية قد بلغ حدا من الوضوح لا يتردد فيه ذو قلب سليم، وإنما يعرض عنه من لا قلب له ، أو من كان في قلبه مرض .

المقصد الأول في خمس آيات(٢١ ـ ٢٥)، وهو في دعوة الناس كافة إلى اعتناق الإسلام.

ـ عود على بدء : في أربع عشرة آية (٢٦ ـ ٣٩).

ـ المقصد الثاني في ثلاث وعشرين ومائة آية (٤٠ ـ ١٦٢)، وهو في دعوة أهل الكتاب دعوة خاصة إلى ترك باطلها والدخول في هذا الدين الحق.

ـ المقصد الثالث في ست ومائة آية (١٧٨ ـ ٢٨٣)، وهي في عرض شرائع هذا الدين تفصيلا.

ـ المقصد الرابع في آية واحدة(٢٨٤) وهي في ذكر الوازع والنازع

(٤) المرجع السابق :١٥٥، وانظر: الموافقات في أصول الشريعة، أبو إسحاق الشاطبي ، تح: أبو الفضل الدمياطي، ٣٢٣/٣ وما بعدها، دار الغد الجديد، القاهرة ، ط/١، ١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م.

(١) المرجع السابق : ١٥٥ .

الديني الذي يبعث على ملازمة تلك الشرائع ويعصم عن مخالفتها.

ـ الخاتمة في آيتين اثنتين (٢٨٥ ـ ٢٨٦) ، وهي في التعريف بالذين استجابوا لهذه الدعوة الشاملة لتلك المقاصد ، وبيان ما يرجى لهم في آجلهم وعاجلهم(١).

ثم يفصل القول في شرح هذه العناصر والأجزاء التي تؤلف وحدة السورة وما بينها من تناسق وتلاؤم ، ومنها مناسبة الخاتمة للمقدمة وتجاوب المقدمة مع الخاتمة.

فلما كان مطلع السورة وعدا كريما لمن سيؤمن بها ويطيع أمرها بأنهم أهل الهدى وأهل الفلاح كانت الخاتمة .

«بلاغا عن نجاح دعوتها ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ ﴾.

ووفاء بوعدها لكل نفس بذلت وسعها في اتباعها ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ ﴾.

وفتحا لباب الأمل على مصراعيه أمام هؤلاء المهتدين ، فليبسطوا أكفهم مبتهلين: " ربنا... ربنا... ربنا ... أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين " ويختم حديثه عن الوحدة القرآنية بقوله: " ولئن كانت للقرآن في بلاغة تعبيره معجزات، وفي أساليب ترتيبه معجزات، وفي نبؤاته الصادقة معجزات ، وفي تشريعاته الخالدة معجزات، وفي كل ما استخدمه من حقائق العلوم النفسية والكونية معجزات ومعجزات ، فإنه في ترتيب آيه على هذا الوجه لهو معجزة

(٢) انظر : المرجع السابق : ١٥٩ ، ١٦٠ .

المعجزات»[١].

هذا ويؤكد في كتابه " المدخل " هذه الخاصية البيانية أعني وحدة السورة القرآنية ، وأنها تتجاوز في سور القرآن مجرد الترابط في الأفكار إلى أنها ذات منهج محدد يقوم على مقدمة ومقاصد وخاتمة ، يقول: «فالواقع أننا وجدنا أكثر مما كنا نتطلب من بحثنا.

فقد كنا نبحث عما إذا كان هناك نوع من الترابط في الأفكار التي تتناولها السورة الواحدة.

ولقد وضح لنا بما أثار دهشتنا أن هناك تخطيطا حقيقيا واضحا ومحددا يتكون من ديباجة وموضوع وخاتمة . فتوضح الآيات الافتتاحية الأولى من السورة الموضوع الذي ستعالجه في خطوطه الرئيسية، ثم يتبع ذلك التدرج في عرض الموضوع بنظام لا يتداخل فيه جزء مع جزء آخر، وإنما يحتل كل جزء المكان المناسب له في جملة السورة ، وأخيرا تأتي الخاتمة التي تقابل الديباجة»[٢] .

المبحث الرابع: وحدة السورة عند الصعيدي:

ومن خلال النظرة العامة للسورة وما تستلزمه من إدراك لوحدتها الموضوعية والتناسب بين معانيها وأجزائها يؤلف الأستاذ عبد المتعال الصعيدي كتابه " النظم الفني في القرآن " . تحدث في مقدمته عن دوافع تأليفه، ومنها ما زعمه بعض المستشرقين الأوربيين من مثل دوزي وكارليل من أن القرآن لا

(١) المرجع السابق : ٢٠٩ ، ٢١٠ .

(١) مدخل إلى القرآن الكريم : د. محمد عبدالله دراز ، ١١٩ ، دار المعرفة الجامعية ، مصر (د.ت) .

ترتيب فيه ولا اتصال بين آياته ولا ارتباط بين أجزائه وسوره «وأنها مفككة الأجزاء ، غير محكمة النظم، ولا واضحة الأغراض» [1]، ومن الدوافع أيضا أنه «لم يوجد من المفسرين من يعنى بجمع الآيات الواردة في غرض واحد تحت اسم يجمعها ، وتندرج به في السورة كما تندرج الفصول في أبواب الكتاب ، ولو أنهم عنوا بهذا لأظهروا السور القرآنية أمام الناس متصلة الأجزاء ، واضحة الأغراض ، وغاية ما يفعله (بعض المفسرين) أن يعنى بإظهار المناسبة بين آية وآية ، فلا يأتي في ذلك بالغرض المطلوب ، ولا ينظر في كل سورة نظرة عامة يعرف بها الغرض المقصود منها ، ثم يقسمها إلى أقسام يدخل كل قسم منها تحت ذلك الغرض العام ...» [2].

ويرى أن هذه النظرة العامة للسورة القرآنية تظهرها للناس متسقة المعاني منتظمة المباني، فلا يظن ظان أنه ينقصها شيء من ذلك الاتساق والانتظام، مما يعين القارئ على فهم القرآن ليحدث أثره فينا، ونستفيد بقراءته كما كان يستفيد سلفنا[3].

ثم يتحدث بإيجاز عن علم المناسبة أو علم ارتباط وترتيب الآيات والسور وأشهر من تكلم فيه ، ويذكر أصولا عامة في ارتباط الآيات ، صادرا في

---

(٢) النظم الفني في القرآن : ٣ ، ٤ ، وانظر : آراء المستشرقين حول القرآن الكريم ، عمر إبراهيم رضوان، ٥٧٩/٢ ، دار طيبة ، ط/١، ١٩٩٣م .

(١) المرجع السابق: ٤.

(٢) المرجع السابق : ٣٧٧ ، ٣٨٨.

جل ذلك عن صاحب الإتقان في علوم القرآن[١].

بعد ذلك يتناول سور القرآن جميعها من الفاتحة إلى الناس، مبينا تاريخ نزول كل سورة ووجه تسميتها والغرض منها ونظمها وترتيبها وأقسام كل سورة، وحدود كل قسم في ذلك الغرض بما يكشف عن وحدتها وتناسق معانيها وانتظام مبانيها ، وقد التزم هذا المنهج في تناوله لسور القرآن.

ونختار سورة "سبأ " لنبين منهجه في بيان وحدتها ، فبعد أن أشار إلى تاريخ نزولها ووجه تسميتها وآياتها التي تبلغ أربعا وخمسين آية ، أوضح الغرض منها وترتيبها وهو " إثبات يوم القيامة " وقد افتتحت بحمد الله تمهيدا لذكر اعتراضاتهم على ذلك اليوم(١ ـ ٢)، ثم دار الكلام فيها على ذكر الاعتراض والجواب عنه ، إلى أن ختمت بإثبات عنادهم ومكابرتهم .

- الاعتراض الأول والإجابة عنه (الآيات ٣ ـ ٦).
- الاعتراض الثاني والإجابة عنه (الآيات ٧ ـ ٢٨).
- الاعتراض الثالث والإجابة عنه (الآيتان ٢٩ ، ٣٠).
- الاعتراض الرابع والإجابة عنه (الآيات ٢١ ـ ٤٢).
- ثم ختمت السورة بإثبات عنادهم وبيان سوء حالهم يوم القيامة (الآيات ٤٣ ـ ٥٤)[٢].

وفيما ذكر ما يوضح وحدة موضوع السورة وتآزر معانيها لأداء موضوعها وغرضها العام.

---

(٣) انظر : المرجع السابق : ٥، ٢٨ وما بعدها.

(١) انظر المرجع السابق : ٢٥٠ ـ ٢٥٣ .

المبحث الخامس: وحدة السورة عند أحمد بدوي:

يعد الدكتور أحمد بدوي من العلماء المعاصرين الذين تحدثوا عن وحدة السورة القرآنية وأشاروا إلى اتجاهها إلى الهدف والغرض الواحد وذلك في كتابه القيم"من بلاغة القرآن " الذي ألفه مساهمة منه في الكشف عن بلاغة القرآن وإدراك إعجازه، وتبين بعض أسرار سموه وسبب ما كان له من تأثير في النفوس، وسلطان على القلوب[1] .

ويأتي حديثه عن وحدة السورة في سياق منهج وضعه لدراسات البلاغة القرآنية كما ينبغي أن تكون، مؤملا أن يفتح به أبواب البحث لمن يتخصص في هذه الدراسة، فيتناول دراسة المفردة القرآنية والجملة القرآنية والآية والسورة والمعاني القرآنية، وطبق هذا المنهج في هذا الكتاب الذي قسم البحث فيه كتابين أو بابين، خصص الأول منهما بدراسة البلاغة في اللفظ والأسلوب، وخصص الثاني بدراسة المعاني.

ويأتي حديثه عن وحدة السورة في الفصل الثالث من الباب الأول الذي تحدث فيه عن بلاغة السورة لتبين منهجها ووحدتها[2].

فأشار إلى تقسيم سور القرآن إلى سور ذات موضوع واحد تتحدث عنه ولا تتجاوزه إلى سواه، مثل كثير من قصار السور، وسور تتناول أغراضا شتى، مثل معظم سور القرآن[3].

---

(١) انظر: من بلاغة القرآن ، د. أحمد أحمد بدوي، مطبعة نهضة مصر ، القاهرة ، ١٣٧٠هـ – ١٩٥٠م ؛ المقدمة : د، و .

(١) المرجع السابق : ٢٢٩ وما بعدها .

(٢) انظر : المرجع السابق : ٢٢٩ .

ويرى أن المنهج القرآني الذي ألفت عليه السورة هو الذي يحقق هدفه الذي يرمي إليه .

يقول: «يتنقل القرآن فيها بين الأغراض المختلفة لا اعتباطا وبلا هدف، ولكن لصلات وثيقة تربط بين هذه الأغراض؛ بحيث تتضافر جميعها في الوصول إلى الغاية القصوى وتحقيقها وهي غرس عقيدة التوحيد في النفس، وانتزاع ما يخالف هذه العقيدة من الضمير، والدعوة إلى العمل الصالح المكون للإنسان المهذب الكامل بسن القوانين المهذبة للفرد الناهضة بالجماعة»(١).

ويؤكد ما سبق مقررا الوحدة الموضوعية للسورة، مشيرا إلى اتجاه السورة القرآنية إلى الموضوع أو الغرض الواحد .

يقول: «ولكل سورة في القرآن هدف ترمي إليه ، فتجد سورة الأنعام مثلا تتجه إلى إثبات توحيد الله ونبوة رسوله، وإبطال مذاهب المبطلين، وما ابتدعوه من تحليل حرام، أو تحريم حلال، وتجد سورة الأعراف تتجه إلى الإنذار والاتعاظ بقصص الأولين وأخبارهم ، وتجد سورة التوبة تحدد علاقة المسلمين بأعدائهم من مشركين وأهل كتاب ومنافقين...وهكذا تجد هدفا عاما تدور حوله السورة، وتتبعه معان أخرى تؤكده ويستتبعها ، ويخلص الإنسان في السورة من معنى إلى آخر خلوصا طبيعيا لا عسر فيه ولا اقتسار»(٢).

(٣) المرجع السابق : ٢٣٠ .

(١) المرجع السابق : ٢٣٤ .

ويحلل المؤلف سورة المزمل ، مبينا مظاهر وحدتها ، فأشار إلى الهدف منها وهو «تهيئة الرسول (ﷺ) للدعوة ، وإعداده لما سيلقاه في سبيلها من متاعب ومشاق»[1].

ثم بين ارتباط معاني آياتها واتساق أجزائها نحو هدفها ومحورها والذي يتلخص فيما يأتي[2].

١) بدئت السورة بنداء الرسول ، وتكليفه بما يعده لحمل أعباء الرسالة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩ ﴾.

٢) بعد ذلك الإعداد بالرياضة النفسية أراد أن يوطئه على تحمل الأذى في سبيل هذه الدعوة والصبر عليه ، وينذر المكذبين بما سيجدونه يوم القيامة من عذاب شديد ، وهنا يجد المجال فسيحا لوصف هذا اليوم وصفا يبعث الرهبة في النفس عساها تكف عن العناد وترجع إلى الحق والصواب ، ضاربا المثل من التاريخ لمن كذب وعصى ، ليكون عظة وذكرى ، ملاحظا الانتقال الطبيعي بين المعاني ، محتتما الإنذار بجملة تفتح باب الأمل والنجاة لمن أرادها ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ

(٢) المرجع السابق : ٢٣٤ .

(٣) انظر : المرجع السابق ، ٢٣٤ – ٢٣٦.

وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ ۚ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ ﴾ .

٣) وينتقل السياق من إنذاره للمكذبين إلى خطابه للمطيعين ، ويختم خطابه لهم بوصفه بالرحمة والغفران : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ ۙ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ .

٤) ويختم تحليله للسورة بتأكيد وحدتها وتلخيص مظاهرها ، ممثلة في الترابط والاتساق بين أغراضها ، وحسن التخلص وسهولة الانتقال من غرض إلى آخر[١].

هذا ويتحدث الأستاذ بدوي بعد ذلك عن مظهر آخر من مظاهر وحدة السورة القرآنية ، ممثلا في التناسب بين افتتاحية السورة وخاتمتها ، مشيرا إلى بعض خصائصها الموضوعية والأسلوبية.

(١) انظر : المرجع السابق ، ٢٣٧ .

فالسورة القرآنية تبدأ حينا بالثناء على الله، وحينا تعظيم من شأن الكتاب، وبالقسم أو بنداء الرسول والمؤمنين، وحينا موحية بفكرة السورة وغرضها المحوري ن وتختم بما يشعر النفس بأن المعاني التي تناولتها قد استوفيت تمامها ، ووجدت النفس عند الخاتمة سكونها وطمأنينتها[1].

هذا ولم تنحصر العناية بوحدة السورة في البيئة العربية عند بعض علماء الإعجاز العرب المعاصرين، فقد تجاوزت دائرة العناية بها الوطن العربي إلى بعض البيئات الإسلامية، فعني بها بعض العلماء المسلمين المعاصرين على ما سنوضحه في المبحث السادس.

المبحث السادس: وحدة السورة عند الفراهي (١٣٤٩هـ - ١٩٣٠م):

يعد العالم الهندي الشيخ عبدالحميد الفراهي من أوائل من تحدث عن وحدة السورة القرآنية من المحدثين المعاصرين، فقد ألف تفسيرا للقرآن سماه" نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان"[2]، وجعل له مقدمة أفردها في كتاب سماه" دلائل النظام"[3]، «أصل فيه منهج استخراج الوحدة الموضوعية في السورة ... وهي ما أطلق عليها " عمود السورة"[4]. ويقع الدلائل في مقدمة وفصول مختصرة بلغت ثمانية وأربعين فصلا.

بين المؤلف في المقدمة أو الخطبة مراده بالدلائل والنظام.

---

(١) انظر : المرجع السابق ، ٢٣٧ – ٢٤٠ .

(٢) تفسير نظام القرآن : عبدالحميد الفراهي، الدائرة الحميدية ، ط/١ ، الهند ، ٢٠٠٨م .

(٣) دلائل النظام : الفراهي، المطبعة الحميدية ، الهند ، ط/١، ١٣٨٨هـ .

(٤) منهجية البحث في التفسير الموضوعي: د. زياد الدغامين، ١٠٦ ، دار البشير، عمان، ط/١، ١٩٩٥م ، وانظر: دلائل النظام ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٦ .

يقول: «نريد بالدلائل: ما يدل على وجود النظام في القرآن ، وما يهديك إلى معرفته وطريق استنباطه...الأول نظري والثاني عملي ، وكلاهما أصولي يبحث فيه عن الأصول الكلية للنظام عموما، ولنظام القرآن الحكيم خصوصا»[١].

مراده بالنظام «معرفة روابط الكلام وتركيب أجزائه ، وتناسبها...»[٢]، أو هو عمود الكلام وحسن ترتيبه سواء كان الكلام جملة أم عدة جمل، فلا بد من الوحدة في نظمه وإلا كان الكلام منتشرا[٣].

وفي الفصل الحادي والثلاثين الذي عنوانه "فن النظم عموما"[٤] قسم الكلام إلى أجزاء تركيبية تفصيلية وأجزاء إجمالية ويذكر أنواعا لكل قسم.

أما الأجزاء التفصيلية فمنها: التعليل والتفريع والتأصيل والتفصيل المجمل والتمثيل وإيراد المتشابه وإيراد المقابل والضد والتنبيه بالوعد والوعيد والتحسين والتقبيح . وأما الأجزاء الإجمالية فمنها العمود والتمهيد والمنهج والخاتمة.

أما العمود: فيقصد به «جماع مطالب الخطاب ، فإليه مجرى الكلام، وهو المحصول والمقصود منه ، فليس من أجزائه الترتيبية ولكنه يسري فيه كالروح والسر.

---

(١) دلائل النظام : ١١ .

(٢) المرجع السابق : ١٦ .

(٣) انظر : المرجع السابق ، ٥٠ ، وانظر : منهجية البحث في التفسير الموضوعي : ١٠٦ .

(٤) انظر : المرجع السابق : ٧٢ – ٧٤ .

والكلام شرحه وتفصيله ، وإنتاجه وتعليله ، وربما يحسن إخفاءه ، فلا يطلع عليه إلا بعد استيفاء الكلام والتدبر فيه.

وأما التمهيد: فأكثر ما يحتاج إلى تقديمه في الكلام إذا خوطب به من لعله يصعب عليه، فيقدم لإلقاء ما هو المقصود...

وأما المنهج: فهو مساق الكلام، وهو إما خطاب إلى النبي ، أو إلى المؤمنين، أو إلى المنكرين، أو جامع...»[1] .

وفي الفصل الثاني والثلاثين يفرق بين المناسبة والنظام فيعدها جزءا منه.

يقول: «قد صنف بعض العلماء في تناسب الآي والسور. وأما الكلام في نظام القرآن، فلم أطلع عليه.

والفرق بينهما أن التناسب إنما هو جزء من النظام، فإن التناسب بين الآيات بعضها مع بعض لا يكشف عن كون الكلام شيئا واحدا مستقلا بنفسه، وطالب التناسب ربما يقنع بمناسبه ما، فربما يغفل عن المناسبة التي ينتظم بها الكلام فيصير شيئا واحدا... وبالجملة فمرادنا بالنظام أن تكون السورة كلاما واحدا، ثم تكون ذات مناسبة بالسورة السابقة واللاحقة...فالنظام شيء زائد على المناسبة وترتيب الأجزاء»[2]. ويشير إلى أهمية فهم نظام القرآن وقيمته البلاغية فيعده «فنا مستقلا من البلاغة ، بل هو الذروة العليا منها، ولولا القرآن وإعجازه ما اهتدينا إليه...»[3].

---

(١) المرجع السابق : ٧٣ ، ٧٤ .

(٢) المرجع السابق : ٧٤ ، ٧٥ .

(٣) المرجع السابق : ١١ ، وانظر : ٧٥ .

ويبين في الفصلين الثالث والثلاثين والرابع والثلاثين مقومات نظام السورة ومقتضيات جماله وبلاغته وحسنه وما لا يتم إلا بها، ممثلا في وحدة السورة أو عمودها. يقول: «إن معاني الكلام إذا ارتبط بعضها ببعض وجرت إلى عمود واحد، وكان الكلام ذا وحدانية، فحينئذ لا يكون إلا وله صورة مشخصة، فإذا نظرت إلى الكلام من هذه الجهة، رأيت ما فيه من الجمال والإتقان...والكلام الصحيح النظام لا بد له من عمود يجري إليه الكلام، فلا بد لطالب النظام أن يتأمل في مساق الكلام...وبالجملة فالنظام هو الذي يعطي السورة وحدانيتها التي بها صارت سورة كاملة مستقلة بنفسها ذات عمود تجري إليه أجزاؤها» [(١)]، ويعد وحدة السورة تمام الحسن والبلاغة.

يقول: «التحدي لم يقع بأقل من سورة، وذلك دليل على أن السورة لها نظم خاص، (يجعلها) كلاما ذا وحدانية ، وتمام الحسن والبلاغة إنما هو بتلك الوحدانية ...» [(٢)].

ويشير المؤلف إلى سبب عدم إدراك جمهور المفسرين للنظام وهو أن تكون السورة كلاما واحدا ثم تكون ذات مناسبة بالسورة السابقة واللاحقة ... فترى القرآن كله كلاما واحدا[(٣)] فيقول: «المعترفون بوجود التناسب، جعلوا التناسب علما شريفا، ولكن لم يجعلوه جزءا عظيما من مفهوم القرآن، ولذلك بقي متروكا لأشكاله.

---

(١) المرجع السابق : ٧٥ ، ٧٦ .

(٢) المرجع السابق : ٧٦ .

(٣) المرجع السابق : ٧٥ .

وأما نحن فنقول: إن فهم القرآن محوّل إليه، والوجوه الكثيرة في التأويل وعدم الاعتماد على تأويل صحيح إنما نشأ من عدم المعرفة بالنظام ، فإنه هو المعتد في صحيح التأويل ورفع الشكوك والحيرة» [١].

وتحدث في الفصلين الخامس والأربعين والسادس والأربعين عن عمود السور ومطالبها إجمالا[٢] .

وبعد فتلك خلاصة نظرية الإمام الفراهي أو منهجه الذي وضعه في هذا الكتاب لبحث الوحدة الموضوعية في السورة القرآنية التي أطلق عليها عمود السورة . وعلى الرغم من قيمة هذا العمل إلا أنه كما يقول أحد الباحثين «لم يطبق هذه النظرية، وفي تعيينه لعمود السور أو الوحدة الموضوعية فيها لم يكن يصدر عن منهجه الذي وضعه، فذكر على سبيل المثال– أن سورة البقرة هي" سورة الإيمان المطلوب، وهو الإيمان ببعثة محمد ﷺ، فجمعت دلائلها وسورة آل عمران هي سورة الإسلام، وهو طاعة النبي ﷺ، فهي أشبه بالسابقة لما أن الإسلام إنما هو الجانب الظاهر من الإيمان. وأن سورة النساء كالرداء لسورة الإسلام، بما أنها تبين أن الشريعة رحمة على الناس كافة وكذلك صاحبها.

وسورة العقود " المائدة " مثل السابقة يذكر بناء الإسلام على العهد الإلهي، ويذكر أواسط هذا العهد ونهايته ...»[٣] .

---

(٤) المرجع السابق : ٧٥ .

(٥) المرجع السابق : ٩٣ – ١٠٥.

(١) المرجع السابق : ٩٣ ، ٩٤ .

وقد سلك في تفسيره لبعض السور المنحى التجريئي التحليلي الموجز»[١].

وإذا كان الشيخ الفراهي لم يطبق منهجه في هذا الكتاب كما يرى بعض الباحثين كما أسلفت ، فإنه حاول تطبيقه في كتابه الثاني " نظام القرآن " الذي أشار في ديباجته إلى منهجه وهدفه وهو الكشف عن نظام آيات القرآن العظيم، ملتمسا معنى الآيات من أخواتها ، ومستنبطا نظام السورة من أعماقها، ومن سياقها مؤيدا ما فهمه من القرآن بالنقل والعقل كما يقول[٢].

وبعد أن أشار إلى منهجه في التفسير ودوافع تأليفه ومنها ما لاحظه من أن «جل اختلاف الآراء في التأويل من عدم التزام رباط الآيات ، فإنه لو ظهر النظام واستبان لنا عمود الكلام لجمعنا تحت رآية واحدة وكلمة سواء...» [٣].

بعد ذلك أشار إلى أنه قسم الكتاب في مائة وأربعة عشر قسما جاعلا لكل سورة قسما واحدا، ثم شرع في تفسيره ففسر عددا من السور ، ثم قضى نحبه رحمه الله قبل أن يتيسر له إتمام عمله[٤]، وتتلخص نظريته في معرفة نظام السورة القرآنية ووحدتها في البحث عن عمود السورة، وبيان علاقتها بما قبلها وما بعدها ومقاطعها إجمالا وتفصيلا والترابط بين معاني آياتها وأجزائها.

(٢) منهجية البحث في التفسير الموضوعي : ١٠٧ .

(٣) انظر: نظام القرآن، عبدالحميد الفراهي(الديباجة) ، المطبعة الحميدية، الهند، ط/١٣٨٨هـ.

(١) المرجع السابق: ١٧ ، ١٨ .

(٢) انظر: تقديم سليمان الندوي لكتاب" نظام القرآن " ، ٢ .

ونختار من السور التي فسرها سورة " عبس " ؛ لنقف على منهج الشيخ الفراهي في بيان نظامها ووحدتها وترابط آياتها. فقد بدأ ببيان عمودها ويعنى به موضوعها المحوري وغرضها العام .

يقول: «لا يخفى أن هذه السورة من النذر ، وكان الإنذار أهم مطالب أول الدعوة ومع ذلك تتنوع وجوه البيان ، ففي هذه السورة بني الكلام على كف النبي ﷺ عن إضاعة الوقت بالذين أصروا على كفرهم وعصيانهم» [(١)].

وحول هذا الموضوع يدور السياق العام لهذه السورة الكريمة .

يقول مجملا مقاطعها بعد أن ذكر محورها: «ومن ههنا يعطف وجه القول: (أولا) إلى تشنيع هؤلاء المصرين و(ثانيًا) إلى ذكر الدلائل على شفاعة استغنائهم، و(ثالثا) إلى ذكر مآل أمرهم و(آخرا) على طريق المقابلة ذكر الذين هم خلاف هؤلاء؛ لأن الشيء يتبين بضده، وليجمع الترغيب ، ولكي يبين للنبي أن الاشتغال بالمؤمنين أقدم وأولى» [(٢)] .

وبعد أن أشار إلى صلة السورة بما قبلها بقوله: «وقد ختم السورة السابقة (النازعات) بقوله: «إنما أنت منذر من يخشاها»(٤٥).

فبين في هذه السورة أنك غير مأمور بالإلحاح على الذين لا يخشون...» [(٣)] – بعد ذلك فصل ما أجمله من مقاطعها ونظم آياتها وترابط معانيها على النحو الآتي:

تفسير الكلم وتأويل الجمل في الآيات(١–١٠) وموقعها، نظمها بما

(٣) المرجع السابق: ٢٧٣ .

(٤) المرجع السابق: ٢٧٣ .

(١) المرجع السابق: ٢٧٣ .

يتبعها[١].

ـ تفسير الكلم وتأويل الجمل في الآيات(١١ – ٢٢) والترابط بينها، وصلتها بما قبلها وما بعدها[٢].

ـ تفسير الكلم وتأويل الجمل في الآيات(٢٣ – ٣٢) ومناسبتها لما قبلها وما بعدها[٣] .

ـ تفسير الكلم والجمل في آيات(٣٣ – ٤٢)، وما في نظم السورة من الحكمة في ذكر خلال الخير والشر[٤].

ويختم بنظرة عامة في نظم السورة ووحدة مقاطعها تتلخص فيما يأتي[٥]:

١) بدأت السورة بتشنيع المستغنين الكافرين على سبيل التعريض لينتبهوا، وهذا إلى عشر آيات منها: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ ﴾.

٢) ذكر علو منزلة هذه التذكرة المكرمة المرفوعة المطهرة بأيدي الملائكة الكرام، وقد أنزلها– تعالى– لعباده فضلا عليهم، فلا تليق بالمعرضين عنها الكارهين سماعها. وهذا إلى ست عشرة آية.

(٢) انظر: المرجع السابق ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

(٣) انظر : المرجع السابق ، ٢٨٧ – ٢٩٢ .

(٤) انظر : المرجع السابق ، ٢٩٣ – ٢٩٩ .

(٥) انظر : المرجع السابق ، ٣٠٠ – ٣٠٢ .

(٦) انظر : المرجع السابق ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ .

﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ﴿١٣﴾ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ﴿١٤﴾ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ﴿١٥﴾ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ﴿١٦﴾ ﴾ .

٣) ثم أتبع الآيات جملتين، وذكر فيهما من نعمه وقدرته ما يوضح مهانة الإنسان وضعفه وفقره إلى ربه، لتتضح شناعة كفره وفجوره.

أما الأولى فتذكر النعم التي في نفس وجوده ، وهي إلى اثنتين وعشرين آية.

﴿ قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ ﴾.

وأما الثانية فتذكر النعم التي تحفه، وبها بقاؤه، وهي إلى اثنتين وثلاثين آية. وخلاصة معنى الجملتين: إن الإنسان يرى في نفسه نعم خالقه القادر، ثم يستغني عنه، وينكر بأن يحاسبه فيبعثه، فما أكفره وما أفجره ! .

﴿ كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ﴿٢٨﴾ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴿٣٢﴾ ﴾.

٤) ثم بعدما بين فقر الإنسان وجريان نعمة الرب وقدرته عليه أن يذكر فقره بعد هذه الحياة يوم يذهب عنه كل ما كان سببا لغفلته واستغنائه وكفره وفجوره ، وذلك إلى سبع وثلاثين آية.

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾.

فالحق ذكر القيامة بما مهد لها من الدلائل ، وهكذا الحق ذكر البعث بما كان دليلا عليه في الجملة الأولى.

٥) ثم بعد ذكر غاية فقر الإنسان ، وشناعة استغنائه وكفره وفجوره ختم السورة بذكر مآل الفرقتين : الخاشعة المتزكية، والكفرة الفجرة ، كما بدأ السورة بذكرهما، وذلك إلى اثنتين وأربعين آية، وهي تمام السورة.

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾.

ويختم حديثه بتأكيد وحدة السياق في هذه السورة الكريمة: «فانظر كيف جعل سياق هذه السورة لذكر شناعة استغناء الإنسان مع كمال فقره واحتياجه إلى ما يسر له الرب من نعمه السوابغ، لا سيما هذه التذكرة التي هي أعظم ما رزقه به، وأخرج جملة هذا البيان مخرج التنبيه لنبيه على أن لا يلح على هؤلاء المستغنين، ويشتغل بالذين هم أحقاء بهذه النعمة العظمى»[(١)].

(١) المرجع السابق : ٣٠٥ .

الخاتمة

وبعد فلعل فيما أسلفت ما يلقي الضوء على وحدة السورة عند علماء الإعجاز المعاصرين وجهودهم في دراستها، ومنه يمكن أن أسجل ما يأتي:

١) نمت العناية بوحدة السورة في العصر الحديث عند بعض علماء الإعجاز بدوافع متعددة منها اهتمام بعض أساتذة التفسير المحدثين بوحدة السورة ومن أوائلهم الشيخ محمد عبده الذي يعد أول من استعمل مصطلح الوحدة الموضوعية للسورة ، ومنها اهتمام الدراسات النقدية الحديثة بقضية الوحدة الفنية ، ومنها اتساع دائرة فهم المحدثين للبلاغة والجمال الفني لتتجاوز الجزئيات ممثلة في الشواهد والأمثلة المجتزأة فتشمل النص بوصفه كلا متماسكا في وحدته وانسجام أجزائه وتناسقها.

٢) تحدث الرافعي عن وحدة السورة حديثا عاما في سياق حديثه عن إعجاز القرآن . فعد هذه الخاصية البلاغية من أهم وجوه الإعجاز، وأشار إلى صلتها بعلم المناسبة، وتكلم عن الترابط القوي بين عناصر النظم القرآني، وسمى هذا الترابط بروح التركيب الذي انفرد به نظم القرآن وامتاز بهذه الوحدة عن غيره على الرغم من تعدد أغراضه وموضوعاته.

٣) ويعنى الأستاذ سيد قطب في ظلال القرآن بالوحدة الموضوعية للسورة وترابط أجزائها ومقاطعها ، وتشهد عنده تطورا في تطبيقاتها، فيهتم بها في مطلع تفسير كل سورة على امتداد الظلال، ولذلك يعد أول مفسر أبرز الوحدة الموضوعية المحورية في السورة القرآنية المفردة بشكل عملي مكتوب وطبقه أروع تطبيق، وأضاف مظهرا آخر إلى مظاهر وحدة السورة التي عرفها القدماء وهو التناسب بين موضوع السورة والحلقات القصصية فيها وبسط القول فيه.

٤) وتحظى وحدة السورة بعناية عند الأستاذ محمد عبدالله دراز، وتشهد تطورا في مفهومها، فعدها أهم خصائص الأسلوب في السورة القرآنية، وأكد عمق معنى الوحدة في السورة والتحام أجزائها التحاما عضويا، وأنها تتجاوز الصلات الجزئية ومجرد الترابط والتناسب في المعاني والأفكار إلى أنها ذات نظام كلي ومنهج محدد يقوم على مقدمة وموضوع وخاتمة، وهذه العناصر تتآزر لتحقق مقاصد السورة وأهدافها، ويطبق ذلك عمليا على سورة البقرة أطول سور القرآن، مفصلا القول في هذه العناصر التي تؤلف وحدة هذه السورة الكريمة

٥) وفي سياق النظرة العامة للسورة تناول الأستاذ الصعيدي سور القرآن جميعها من الفاتحة إلى الناس كاشفا عن وحدتها الموضوعية، مبينا الغرض العام من كل سورة وتناسق معانيها وانتظام مبانيها لأداء غرضها ومقصودها.

٦) ويسهم الدكتور أحمد بدوي في الحديث عن وحدة السورة في سياق منهج وضعه لدراسة البلاغة القرآنية ، فتحدث عن بلاغة السورة، مبينا منهجها ووحدتها، مشيرا إلى اتجاهها إلى الهدف والغرض الواحد، ويورد شواهد على ذلك منها سورة المزمل التي حللها، مبينا مظاهر وحدتها، مشيرا إلى صورة أخرى من صور وحدة السورة القرآنية وهي المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها التي أشار إليها بعض المتقدمين وعلماء الإعجاز.

٧) ويتجاوز الاهتمام بوحدة السورة حدود الوطن العربي وتتسع دائرته لتشمل بعض بيئات العالم الإسلامي ، ويعد العالم الهندي الشيخ الفراهي من أوائل من تحدث عن وحدة السورة من المحدثين المعاصرين، فألف كتابين هما: دلائل النظام ونظام القرآن.

أصل في الأول منهج بحث الوحدة الموضوعية في السورة القرآنية أو نظام السورة وعمودها، وفي الثاني حاول تطبيق نظريته على بعض سور القرآن الكريم.

٨) هذا ولعل في جهود علماء الإعجاز البلاغي في دراسة وحدة السورة ما يلفت الأنظار إلى أهمية النظرة الكلية الشاملة لبلاغة السورة والوقوف على وحدتها التي تعين على إدراك صورتها العامة ومعانيها والروح الذي يسري بين آياتها ، فيسهل حفظها وتدبرها وتذوقها وإدراك مقاصدها واهدافها.

وإذا كان هذا البحث لم يعرض للدراسات القرآنية المفردة التي تفسر سورا معينة وتستحضر وحدة سياقها وتعانق موضوعاتها ؛ لئلا يتسع نطاقه ويخرج عن دائرته– فإني أوصي الباحثين في بلاغة القرآن وإعجازه بدراستها ؛ لتتكامل حلقات هذا الموضوع الجدير بالعناية والاهتمام ، ولعل من أبرزها ما كتبه الأستاذ الدكتور حسن محمد باجودة في " الوحدة الموضوعية في سورة يوسف عليه السلام " و " تأملات في سورة آل عمران " و " تأملات في سورة المائدة "و" تأملات في سورة الإسراء "وغيرها. هذا والله أعلم.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

مصادر البحث ومراجعه

١) القرآن الكريم.

اتجاهات التجديد في تفسير القرآن الكريم في مصر: د. محمد إبراهيم شريف، ط/١، دار التراث، القاهرة ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

٢) الإتقان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي، مطبعة مصطفى الحلبي، القاهرة، ط/٤، ١٣٨٩هـ - ١٩٧٨م.

٣) آراء المستشرقين حول القرآن الكريم : عمر إبراهيم رضوان، ٢/٥٨٩، دار طيبة، ط/١، ١٩٩٣م.

٤) إعجاز القرآن: أبو بكر الباقلاني، تح: السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، ط/٤، ١٩٧٧م.

٥) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: مصطفى صادق الرافعي، ط/٨ (د.ت).

٦) أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن: د. عبدالله شحاتة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط/٤ ، ١٩٩٨م .

٧) البرهان في علوم القرآن: بدر الدين الزركشي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعرفة، بيروت، ط/٢، ١٣٩١هـ - ١٩٧٢م.

٨) البلاغة تطور وتاريخ: د. شوقي ضيف ، دار المعارف ، مصر، ط/١٥ (د.ت).

٩) البلاغة والتحليل الأدبي: د. أحمد أبو حاقة ، دار العلم للملايين، بيروت، ط/١، ١٩٨٨م.

١٠) التصوير الفني في القرآن: سيد قطب، دار الشروق ، بيروت، ط/٣ (د.ت).

١١) التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب: فخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/١، ١٤٢١هـ .

١٢) تفسير نظام القرآن: عبدالحميد الفراهي، الدائرة الحميدية، الهند، ط/١، ٢٠٠٨م.

١٣) التناسب البياني في القرآن: أحمد أبو زيد، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٩٢م.

١٤) دلائل النظام: عبدالحميد الفراهي، المطبعة الحميدية، الهند، ط/١، ١٣٨٨هـ .

١٥) السيرة النبوية: ابن هشام، تح: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبدالحفيظ شلبي، دار الكنوز الأدبية(د.ت) .

١٦) علوم القرآن: د. عدنان زرزور، المكتب الإسلامي، بيروت، ط/٢، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .

١٧) في ظلال القرآن: سيد قطب، دار الشروق، بيروت، ط/١٥ ، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

١٨) مدخل إلى القرآن الكريم: د. محمد عبدالله دراز ، دار المعرفة الجامعية، مصر(د. ت).

١٩) من بلاغة القرآن: د. أحمد أحمد بدوي ، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، ١٣٧٠هـ – ١٩٥٠م .

٢٠) منهجية البحث في التفسير الموضوعي: د. زياد الدغامين، دار البشير، عمان، ط/١، ١٩٩٥م.

٢١) الموافقات في أصول الشريعة: أبو إسحاق الشاطبي، تح: أبو الفضل الدمياطي، دار الغد الجديد، القاهرة، ط/١، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.

٢٢) النبأ العظيم: د. محمد عبدالله دراز ، مطبعة السعادة، مصر، ١٣٧٩هـ ـ ١٩٦٠م.

٢٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: برهان الدين البقاعي، تح: عبدالرزاق المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/١، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

٢٤) النظم الفني في القرآن: عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز، القاهرة (د.ت).

٢٥) النقد الأدبي بين القدامى والمحدثين: د. العربي حسن درويش، مكتبة النهضة، القاهرة ، القاهرة (د. ت).

٢٦) النقد الأدبي الحديث: د. محمد غنيمي هلال، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٣م.

فهرس الموضوعات

المقدمة ٢٢٩
التمهيد: عناية المعاصرين من علماء الإعجاز بوحدة السورة وتطور مفهومها: ٢٣٢
المبحث الأول: وحدة السورة عند الرافعي (ت١٣٥٦هـ): ٢٣٥
المبحث الثاني: وحدة السورة عند سيد قطب (١٩٦٦م): ٢٣٧
المبحث الثالث: وحدة السورة عند دراز: ٢٤٥
المبحث الرابع: وحدة السورة عند الصعيدي: ٢٥١
المبحث الخامس: وحدة السورة عند أحمد بدوي: ٢٥٤
المبحث السادس: وحدة السورة عند الفراهي (١٣٤٩هـ - ١٩٣٠م).... ٢٥٨
الخاتمة..... ٢٦٨
مصادر البحث ومراجعه ٢٧١
فهرس الموضوعات ٢٧٤